

المبداء والمصير وما بينهما

دستور الحكيم المخبر

للأستاذ:
أحمد بغداد

بقليل من التأمل في العنوان أعلاه، نصل إلى الاستنتاج التالي :
... من أين جئنا، لماذا وجدنا، وأين مصيرنا؟

نقط ثلاث، حيرت أذهان فحول الفلاسفة والمفكرين القدامى منهم والمحدثين،
وشغلتهم ردحا طويلا من الزمن.

وبعد أن كلت عقولهم، بحثا عن الحقيقة للوصول إلى نتائج شافية، وأجوبة علمية
نهائية تطمئن إليها النفوس الحائرة عن هذه النقاط الثلاث، باءت بالفشل الذريع،
والعجز الشنيع، وطلعت علينا بنتائج خرافية، ونظريات عشوائية، مثيرة للضحك
والسخرية، لا يقبلها ذوق سليم، ولا يرضاها عقل مستقيم.

النقطة الأولى : من أين جئنا ؟

لقد كانت نهاية شوطهم أن ذهب بعضهم إلى أن الانسان أصله قرد، كما يقول :
شارل روبرت داروين الطبيعي الإنجليزي المشهور في كتابه «أصل الأنواع» إن
الانسان تسلسل من سلالة حيوانية، وأن كل الكائنات لها أصل واحد، أو أصول
قليلة.

وليس داروين أول من قال هذه المقالة، فقد سبقه إليها الأساتذة الفرنسيون،
أمثال : مايبند، ولامارك ومالتوس القسيس الإنجليزي، وإنما هو أول من استطاع أن
يدعمها دعما علميا فنسبت إليه دون غيره.

وقد بنى داروين مذهبه على نواميس أربعة وهي :

أ — تنازع البقاء.

ب — الانتخاب الطبيعي.

ج — المطابقة.

د — الوراثة.

ومعنى تنازع البقاء : أن الأحياء الأرضية كلها متنازعة في البقاء.

ومعنى الانتخاب الطبيعي : أن نتيجة هذا التنازع كله بقاء الأصلح للبقاء، وهلاك غير الأصلح، كأن الطبيعة تنتخب الأقوى فتبقيه، وتبيد الأضعف ليكون ذلك الارتقاء بمعناه الأعم.

ومعنى المطابقة : أن لنوع الأغذية وطرق الوصول إليها دخلا كبيرا في إحداث الاختلافات بين الأنواع.

ومعنى الوراثة : أن الصفات العرضية التي تحدث في الآباء بواسطة اختلاف الأحوال والأوساط المعيشية تنتقل إلى الأبناء.⁽¹⁾

وليس موضوعنا تحليل كتاب «أصل الأنواع» تحليلا مفصلا، وذلك لما حواه من المشاهدات والتجارب التي قد تصرفنا عن المنهج المرسوم، خصوصا أثناء رحلته على ظهر السفينة — بيجل.⁽²⁾

وإنما الموضوع نتجه به إلى السؤال التالي :

وهو، هل صحيح أن الانسان مترق من القرد؟ وهل بينه وبين الكلاب قرابة كما يقول «داروين» ؟ أكثر الاعتراضات على هذه النظرية تكاد تنحصر في ثلاثة أمور :

أولا : عدم مشاهدة أي ارتقاء من أي نوع كان في الأحياء الأرضية من عهد ألاف عديدة من السنين.

ثانيا : عدم وجود الصور المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب التسلسل، كأن يوجد — مثلا — حيوان أرقى من القرد رتبة واحدة، وأدنى من الانسان رتبة واحدة أيضا.

(1) بتصرف قليل من «تراث الانسانية» وزارة الثقافة والإرشاد القومي والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. المجلد الثاني ص 974.

(2) بدأ الشك يخامر ذهن «داروين» في مبدئ ثبات الأنواع، وقد كان قبل أن تطأ أقدامه أرض أمريكا الجنوبية، مقتنعا بمبدئ الثبات، ولا يجد من الأدلة القوية ما يشجع على رفضه رفضا باتا، ولكنه عندما لاحظ : أن التوزيع الجغرافي للأنواع الحية، وعلاقتها بالأنواع المنقرضة — التي دلت على وجودها الحفريات — لا يمكن تفسيره عن طريق النظرية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، وهي التي تقول : إن كل نوع من الكائنات خلق على حدة، وفي صورة مستقلة. عندما لاحظ ذلك اتجه ذهنه إلى فكرة التطور.

ثالثا : طول الزمن اللازم لحصول الترقى بين الأحياء.

وعلى الفرض والتقدير أن مذهب «داروين» وأنصاره صحيح. فكيف يكون تفسيرنا لما ورد في «القرآن العظيم» عن أصل الخليقة، وأصل النوع الانساني ؟ لا نسمح ليميننا أن تخط ولو كلمة واحدة، إلا بعد أن نسرد بعض الآيات الكريمة من كتاب الله تعالى التي تكلمت عن أصل الانسان، وما قاله علماء التفسير فيها. إن خلق الانسان مر في ثماني مراحل حسبما تقتضيه سنة الله في التطور فالانسان، قبل أن خلق الله الأرض التي خلق منها، لم يكن يستحق أن يطلق عليه اسم الشيء كما قال سبحانه في خطاب نبيه زكرياء عليه السلام... ﴿ولقد خلقتك من قبل ولم تكن شيئا﴾ (3) فنفى عنه اسم الشيئية، ثم بعدما خلق الأرض التي خلق منها الانسان صار شيئا، ولكنه بقي كما كان مهملا لا يذكر، كما تقول الآية الكريمة : ﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا﴾ (4)

فالله سبحانه وتعالى، إنما نفى عنه ها هنا الذكر فقط، ولم ينف عنه الشيئية، لأن قوله تعالى «مذكورا» قيد يرجع إلى المنفي فقط، ثم بعد ذلك تابعت مراحل الخلق، فخلق الله «آدم» ثم جعل الله الانسان نطفة، ثم جعله علقة، ثم جعله مضغة، ثم جعله عظاما، ثم كسا العظام لحما، ثم نفخ فيه الروح. وأنشأ خلقا آخر، وإلى هذه المراحل يشير القرآن : ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر.﴾ (5) ويقول سبحانه في آية أخرى : ﴿منها خلقناكم، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم...﴾ (6)

أي من الأرض مبدأكم، فإن أباكم «آدم» مخلوق من تراب من أديم الأرض، وفيها نعيدكم أي وإليها تصيرون إذا متم ومنها نخرجكم تارة أخرى. وقد روى أصحاب السنن : «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب، فألقاها في القبر، وقال : ﴿منها خلقناكم، ثم أخذ أخرى، وقال : وفيها نعيدكم، ثم أخرى، وقال : ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾.

(3) آية 9 سورة مهم

(4) آية 1 سورة الانسان

(5) آية 13، 14، 15 — المومنون

(6) آية 55 — طه

وقال سبحانه : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ (7) وقال عز من قائل : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون ﴾ (8) وقال تبارك اسمه : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ (9) وقال جل وعلا : ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ (10) وقال تعالى : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ (11) وقال تعالى : ﴿ ثم سواه ونفخ فيه من روحه ﴾ (12) يعني «آدم» خلقه من تراب، خلقاً سوياً مستقيماً، ونفخ فيه من روحه.

وقال : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ (13) جاء في تفسير هذه الآية لسيد قطب ما نصه (14) «وخاصية الارتقاء العقلي والروحي خاصية إنسانية بحتة، لا يشاركه فيها سائر الأحياء في هذه الأرض، وقد عاصر مولد الإنسان أجناس وأنواع شتى من الأحياء، ولم يقع في هذا التاريخ الطويل أن ارتقى نوع أو جنس — ولا أحد أفراده — عقلياً أو روحياً، حتى مع التسليم بوقوع الارتقاء العضوي.»

من خلال هذه الآيات الكريمات يتضح لنا بكل يسر، أن الإنسان مركب من عنصرين : عنصر مادي، وعنصر روحي.

الأول : هو جسمه، وما يتعلق به من غرائز وشهوات حيوانية، وهذا من الطين خلق، ومن تراب الأرض أنشئ وأنبت.

الثاني : هو الروح الذي نفخه سبحانه في الكيان البشري، وهو الجوهر النفيس الذي تتحقق به إنسانية الإنسان، وبه يسمو إلى أعلى الدرجات، وبه ارتفع «آدم» أبو البشرية عليه السلام إلى مستوى الأستاذية للملائكة الأبرار.

وعلى ذكر الروح، فقد اختلف العلماء فيها على أقوال : أوصلها بعضهم إلى ألف قول أو يزيد، والمعتمد أنها جسم لطيف سار في البدن، مشتبك به اشتباك الماء بالورد وعروق الشجر.

وقد ذكر الامام ابن القيم في كتابه «الروح» تحت باب المسألة التاسعة عشرة، ما

(7) آية 20، الروم

(8) آية 26، الحجر

(9) آية 17، نوح

(10) آية 7، السجدة

(11) آية 39، الحجر

(12) آية 9، السجدة

(13) آية 72، ص

(14) ظلال القرآن ج 109/23، ط. بيروت لبنان

هي حقيقة النفس ؟ هل هي جزء من أجزاء البدن، أو عرض من أعراضه؟ وهل هي الروح أو غيرها ؟

ذكر الامام ابن القيم العديد من الأقوال المختلفة في النفس والروح، وخلاصة كلامه : أن العلماء اختلفوا إلى فرق كثيرة في النفس، كما اختلفوا في الروح، فمنهم من قال : إن النفس هي الروح، ومنهم من قال : إن النفس غير الروح. وقالت طائفة : إن النفس هي الداخل والخارج بالتنفس، وهذا قول القاضي أبي بكر الباقلاني، ومن تبعه من الأشعرية. وقال ابن حزم : النفس والروح مترادفان لمعنى واحد، وقال : إن النفس جسم طويل عريض عميق، ذات مكان وجثة متميزة، ورغم غرابة هذا الكلام وشذوذه، فقد زعم ابن حزم أن سائر أهل الاسلام، بل والملل المقرة بالمعاد، لا ترى غير قوله هذا. وقالت طائفة : ليست النفس جسما ولا عرضا، وليست النفس في مكان، ولا لها طول ولا عرض، ولا عمق ولا لون، ولا بعض، ولا هي في العالم ولا خارجه، ولا مجاورة له ولا مباينة، وهذا قول أرسطو، وبه قال بعض الفلاسفة المسلمين، ومنهم ابن سينا والفارابي. وذكر الامام الغزالي : أن القلب والروح والعقل والنفس ألفاظ تطلق كل واحدة منها على عدة معان، وتشترك جميعها في معنى واحد هي تلك اللطيفة الربانية.

وهكذا تبقى كلمة «الروح» المشكل الوحيد، واللغز الفريد الذي استعصى فهمه على الانسان، وحاصل ما نقول : إن الروح مما استأثر به الله تعالى، ولا سبيل إلى معرفته (15) ومن خلال ما قدمنا من بعض الآيات القرآنية التي تكلمت عن أصل الانسان، لا يسعنا — في هذه العجالة — إلا أن نقول لداروين : إذا كان أصل الانسان قردا فهو بالنسبة له وحده، فداروين — على كل حال — باعترافه واختياره انتسب إلى القرد.

أما نحن — سائر الناس — فإننا من ذرية أب الأنبياء الذي تولى الله — تبارك وتعالى — خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه من العلوم قبل أن ينزل إلى هذا الكوكب الأرضي علوما ما كانت تعلمها الملائكة.

النقطة الثانية : ... «لماذا وجدنا» ؟

كثيرا ما يسأل المرء نفسه : لماذا وجدنا؟ — أو بالأحرى — ما هي الغاية من إيجادنا ؟ وفي كل مرة نجد الجواب الشافي المقنع في القرآن الكريم — الذي ليس بعده

(15) أنظر تفسير — ابن كثير — ج 61/3 عند شرحه للآية الكريمة... ويسألونك عن الروح...

الا الضلال — إن الغاية من إيجادنا — جميعا — هي عبادة الله وحده، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ (16)

فوظيفتنا التي من أجلها أوجدنا الله في هذه الحياة هي عبادته سبحانه وحده، وبدون هذه الوظيفة لا تستقيم لنا حياة في هذه الأرض، ولا يهنأ لنا فيها عيش، ولا نسعد فيها بأمن ولا طمأنينة هذا فضلا عن أهوال الآخرة.

والعبادة، ليست منحصرة في الصلاة والصيام والزكاة والحج، كما يظن القاصرون، فإن هذا لا يستقيم مع أسلوب الحصر في قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ حيث إن الانسان لا يقضي حياته كلها في الصلاة ونحوها من الشعائر، وإنما هي الأسس التي تقوم عليها العبادة بأوسع معانيها، ويتمثل ذلك في أمرين رئيسيين :

الأول : استقرار معنى العبودية المطلقة لله وحده في نفس المؤمن العابد.

الثاني : التقرب — بعد ذلك — إلى الله وحده بإقامة الشعائر التي كلفنا الله بها. ثم التوجه إليه وحده بكل حركة في الضمير، وبكل حركة في الجوارح، مع التجرد من كل معنى آخر سوى العبودية لله رب العالمين الذي جعل من كل مظاهر نشاط المسلم في سبيل تعمير الأرض عبادة. فإذا انطلق الانسان لكسب قوت يومه — من الرزق الحلال — بعد تأدية الصلاة فهذا نوع من العبادة، وإذا نام ليأخذ قسطا من الراحة قبل صلاة الفجر، فهذا النوم عبادة، وإذا قام الانسان بأي نشاط يعينه على العبادة كمرعاية الزوجة والأولاد، فهذا نوع من العبادة أيضا. ولكن على هذا الانسان — بداية — أن يقوم بالعبادات المحددة، ثم بعد ذلك السعي على رزقه، امتثالا لقوله تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ (17) وحاصل ما في الأمر، هو أنه ليس في الوجود إلا ربّ يُعبد — وهو الله — وعبد يُعبد — وهو ما سوى الله — .

هذه وظيفتنا في الحياة، عبادة الله وحده، وهي الرباط الذي يربطنا بالكون كله، فإن أديناها فقد حققنا الغاية من وجودنا، وفزنا بالسعادة الأبدية في الدنيا والآخرة. قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ (18).

(16) آية 56 — الطور.

(17) آية 10 الجمعة

(18) آية 132 طه

ومن خالف أمر الله وما أنزله على رسوله الأمين، أو قصر فيه أصبح يعيش في هذه الدنيا بلا وظيفة، وباتت حياته خالية من معناها الأصيل، وانتهى أمره إلى الهلاك والضياح في الدنيا، والعذاب والنكال في الآخرة، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى. قال عز من قائل⁽¹⁹⁾ ﴿ومن أعرض عن ذكري، فإن له معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حسرتني أعمى، وقد كنت بصيرا، قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى، وكذلك نخزي من أسرف، ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾. قلت إنما خلقنا الله سبحانه وتعالى لغاية سامية، هي العبادة فقط، ولقد كرّمنا سبحانه أيّما تكريم حينما خصنا بعبادته، فهذه هي رسالتنا التي يجب أن نضطلع بها، وعلينا أن ندرك أن أقوالنا وأفعالنا كلها لا بدّ أن تتفق من قريب أو بعيد مع هذه الغاية النهائية، فلا يصدر منا قول أو فعل إلا ويخدم هذه الغاية. وبقليل من الفكر والتأمل في قوله تعالى : ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد⁽²⁰⁾﴾ وقوله : ﴿وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين﴾⁽²¹⁾ نكاد نجزم بأن القرآن قد تضمن استراتيجية صحيحة للحياة الإسلامية كما ينبغي أن تكون، ولا يستطيع أن ينكر ذلك إلا مكابر أو جاهل بما في كتاب الله تعالى. ولكي نبلغ تلك الغاية التي خلقنا الله لأجلها، لا بدّ أن نسلك النقط التالية :

الأولى : يجب أن نحيا حياة إسلامية كاملة، فنظام الحكم لا بدّ أن يكون مستمدا من شريعة الله، ونسهم بشكل مباشر في السير نحو هذه الغاية. ولتأخذ هذه الأسوة الحسنة من المسلمين الأوائل، فما من قول أو فعل صدر منهم، إلا ونلمح فيه ذكر اسم الله، أو الدين، أو شؤون الإسلام، فعاشوا سعداء بدينهم ونشروا رسالة الله في أرضه، وأسسوا حضارة إسلامية كبرى، استفاد منها أقطاب العلم والمعرفة. وحسبنا أن نقف وقفة تأمل، لنحاسب أنفسنا، وبالتالي لنرى الفرق الشاسع بين مسلمي اليوم، ومسلمي الأمس البعيد، ومتى يمكن أن تتمثل خطى هؤلاء، وأن نقدّي بهم في وقت افتقد فيه غالبية المسلمين القدوة الحسنة، ولم يصبح أمامهم إلا النماذج السيئة التي يصنعها بعض خصوم الإسلام، ومن تتلمذ على أيديهم. هل يكفيننا أن نتحدث بعزة عن هذا النفر الأول من الصحابة والتابعين الذين أفرزهم

(19) آية 133 إلى 137. طه

(20) آية 18 ق

(21) آية 10 - 11 الانفطار

منهج القرآن، وقادوا الأمة الإسلامية، دون أن نلتفت إلى واقعنا المؤلم الذي افتقدت فيه الساحة العامة تلك التماذج ؟ ويرحم الله معروف الرصافي حيث يقول :

«وما يجدي الفخار بالأوالي إذا لم نفتخر فخرا جديدا
فما بلغ المقاصد غير ساع يردد في غد نظرا سديدا
وهل إن كان حاضرننا شقيا نسود بكون ماضينا سيذا»

الثانية : يجب أن تكون حياتنا الفردية اليومية في إطار ديني، فننظر في عمرنا، وندرك أن كل لحظة تمر علينا سنحاسب عليها قال تعالى : ﴿فوربك لننسلنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ (22) وقال : ﴿إن إلينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم﴾ (23) أي سيعيدنا سبحانه وتعالى — كما بدأنا — ويجازينا على أعمالنا خيرها وشرها.

الثالثة : يجب أن ندرك — أيضا أن المساحة الزمنية التي نحياها لا بد أن تشمل — فقط — على الأفعال المؤدية إلى هذه الغاية التي خلقنا الله لأجلها، فنراعي الله في عملنا ولهونا، وفي نومنا، وفي سرنا وعلتنا، وضبط أنفسنا :

والنفس إن أعطيتها منها فاعرة نحو هواها فاهما

وفي علاقتنا بالناس، ولا نمسي أو نصبح إلا وذكر الله يتردد على لساننا، ويخفق به قلبنا. وبهذا — فقط — نحقق الغاية التي خلقنا الله لأجلها. وقد يجزنا الحديث، والحديث كما قيل — ذو شجون — إلى السؤال عن السر في هذا الشقاء الذي تمسي البشرية وتصبح فيه ؟

الاجابة — بكل بساطة — هي أننا نسينا — أو بالأحرى — تناسينا الغاية من إيجادنا في هذه الدنيا، وصنعنا لأنفسنا غايات أخرى : أهمها السعادة الوقتية الزائلة بالسعي وراء كل ما لذ وطاب، دون ضابط من قانون أو رادع من شريعة، فكان ما كان من هذا الشقاء الذي تعاني البشرية من ويلاته يوما بعد يوم. ونظرة واحدة إلى حالتنا الراهنة تؤكد لنا — جميعا — أن المآسي والأمراض المنتشرة في عصرنا مردّها ضعف الإيمان بالله، وتؤكد — أيضا — أنه لا علاج من هم أو قلق إلا بالعودة إلى منهج الله.

ويتجلى ذلك في أن ننشئ جيلا تنشئة إسلامية ، ونعده لحمل الأمانة، وهذا الجيل

(22) آية 22 الرعد.

(23) آية 26 الغاشية.

ينبغي أن يكون من الصلابة والقوة والتجرد، بحيث لا يتطَّلَع إلى شيء في هذه الأرض، ولا ينتظر إلا الآخرة، ولا يرجو إلا ثواب الله، جيل مستعد لتطلع رحلة الأرض كلها من نصب وعناء، ونصيحة واحتمال، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، بلا جزاء في هذه الأرض، حتى إذا كونا هذا الجيل، وعلمناه — تطبيقياً — أن ليس أمامه في رحلة الأرض شيء إلا أن يعطي بلا مقابل، وأن ينتظر الدار الآخرة وحدها موعداً للجزاء، وموعداً كذلك للفصل بين الحق والباطل، جاعلاً نصب عينيه قول القائل :

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت ينيها

فإن بناها بخير طاب مسكنها وإن بناها بشر خاب بانيها

حتى إذا كونا هذا الجيل، وعلم الله فيه صدق نيته، أتاها النصر في الأرض، وهياً لنا — سبحانه — أسباب التمكين الذي وعد به أوليائه المتقين.

النقطة الثالثة : ... أين مصيرنا ؟ *

حدثنا القرآن الكريم : أن كل أمة — من أمم الأرض — لم تخل من نذير ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ (24) و ﴿لقد بعثنا في كل أمة رسولا﴾ (25) لتقوم حجة الله على الخلق أجمعين. ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ (26) حتى لا يقولوا يوم القيامة : ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ (27).

والحكمة في ذلك أن العقل البشري محدود، لا يدرك حقيقة وجوده، ولا سر الله في خلقه، ولا الطرق التي تنجيه من شرور الدنيا وعذاب الآخرة، لهذا بعث الله في

(٥) جاء في كتاب «تهافت الفلاسفة» : ما يلي : الأقوال الممكنة في أمر المعاد لا تزيد على خمسة، وقد ذهب إلى كل منها جماعة :

الأول : ثبوت المعاد الجسماني فقط، وإن المعاد ليس إلا لهذا البدن، وهو قول نفاة النفس الناطقة المجردة، وهم أكثر أهل الاسلام.

الثاني : المعاد الروحاني فقط، وهو قول الفلاسفة الالهيين الذين ذهبوا إلى أن الانسان هو النفس الناطقة فقط، وأن البدن آلة تستعمل، وتتصرف فيه لاستكمال جوهرها.

الثالث : ثبوت المعاد الروحاني والجسماني معاً، وهو قول من يثبت النفس المجردة الناطقة من الاسلاميين، كالامام الغزالي، والحكيم الراغب، وغيرهما، وكثير من المتصوفة.

الرابع : عدم ثبوت شيء منهما، وهو قول قدماء الطبيعيين الذين لا يعتد بهم ولا بمذاهبهم لا في الملة ولا في الفلسفة.

الخامس : التوقف وهو المنقول عن جالينوس، فقد نقل عنه أنه قال في مرضه الذي مات فيه : إني ما علمت أن النفس هي المزاج، فينعدم عند الموت، فيستحيل إعادتها. أو هي جوهر باق بعد فساد البدن فيمكن المعاد.

(24) آية 34 — فاطر

(25) آية 36 — النحل

(26) آية 15 — الاسراء

(27) آية 19 — المائدة

كل أمة رسولا يبلغ عن الله وعده ووعيده، وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، لتقوم الحجة عليهم، إذا لم يأتهموا بأمره، وينتهوا عن نهيه، كما قال عزّ من قائل : ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك، فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون، أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وإن كنا عن دراستهم لغافلين، أو تقولوا لو أنّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة﴾. (28)

لهذا كان الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من أوجب الواجبات.

وبيان ذلك، أن الله — جلت قدرته — هو وحده المتصرف في الوجود كيف شاء، ومن مستلزمات هذا التصرف ما يلي :

أ — أن يكون له جنود، وجنوده — سبحانه — ملائكته التي لا يحصيها العد ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾. (29)

ب — أن يكون له حث وتحريض، ونهي وتحذير، وترغيب وترهيب، تربطه برعيته، وهي ما تسمى القوانين — حسب لغة العصر — تلکم هي الكتب السماوية.

ج — أن يكون له سفراء يكونون وسطاء بين الملك وشعبه، وهؤلاء هم رسل الله الذين يبلغون رسالات الله.

د — ومن متممات الملك أن تكون له محكمة تجزي على الشر شراً، وعلى الخير خيراً، ومحكمة الله ستكون في اليوم الآخر، أما الجزاء في هذا اليوم فقد أقرته جميع الأديان السماوية، وجعلته شطر الايمان بالله فمن لم يؤمن بهذا اليوم، فلا يكون مؤمناً بالله حقاً، والسّر في ذلك : أن من أخص صفات الله تعالى : العدل، والرحمة، والحكمة، فلو تجردت الدنيا عن الجزاء في اليوم الآخر لما ظهر عدله، ولتعطلت حكمته وربوبيته، واستوى الخبيث والطيب، والأعمى والبصير والظالم والمظلوم.

إذن فمن العبث والجحود والسخافة والسذاجة أن يعتقد الانسان أن وجوده على هذا الكوكب الأرضي محدود، مربوط بهذا العمر القصير، المنغص بالهموم والأحزان، والظلم والطغيان، والانغماس في اللذات والشهوات، ثم ينتهي من هذه الحياة إلى الموت الذي لا بعث بعده.

(28) آية 155 — 156 — 157 — الأنعام

(29) آية 31 — المائدة

ولقد سجل القرآن على هذا النوع من الانسان هذه الظنون الخاطئة، والمزاعم الفاسدة في آيات كثيرة منها : قوله تعالى : ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا، وما نحن بمبعوثين﴾ (30) ومنها : ﴿وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر، وما لهم بذلك من علم إن هم الا يظنون﴾ (31).

جاء في تفسير القرطبي لهذه الآية ما نصه : (32)

«كان المشركون أصنافاً، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع، وينكر البعث، ومنهم من كان يشك في البعث، ولا يقطع بإنكاره، وحدث في الاسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفاً من المسلمين، فيتأولون، ويرون القيامة موت البدن، ويردون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للأرواح بزعمهم. فشر هؤلاء أضر من شر جميع الكفار، لأن هؤلاء يلبسون على الحق، ويغتر بتبليسهم الظاهر، والمشرک المجاهر بشركه يحذره المسلم».

وذكرها الزنجشيري في كشفه فقال : (33)

«...نموت نحن، ويحيى أولادنا، أو يموت بعض ويحيى بعض، أو نكون موتاً نطقاً في الأصلاب، ونحيا بعد ذلك، أو يصيبنا الأمان، الموت، والحياة، يريدون الحياة في الدنيا والموت بعدها، وليس وراء ذلك حياة. وما يقولون ذلك عن علم، ولكن عن ظن وتخمين. كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت، وقبضه الأرواح بأمر الله. وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان».

وذكرها سيد قطب فقال (34) «هكذا كانوا ينظرون تلك النظرة القصيرة، الحياة في نظرهم هي هذا الشوط الذي يرونه في الدنيا رأي العين، جيل يموت، وجيل يحيى، وفي ظاهر الأمر لا تمتد إليهم يد الموت، إنما هي الأيام تمضي، والدهر ينطوي، فاذا هم أموات، فالدهر إذن هو الذي ينهي آجالهم، ويلحق بأجسامهم الموت فيموتون، وهي نظرة سطحية لا تتجاوز المظاهر، ولا تبحث عما وراءها من أسرار».

الانسان عنيد يأبى إلا أن يتمرد على خالقه، ذلك الانسان الذي يقول عنه الحق

(30) آية 29 — الأنعام

(31) آية 24 الجاثية.

(32) الأحكام ج 16/172.

(33) ج 3/512.

(34) الظلال ج 25/392 ط. بيروت.

سبحانه : ﴿أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلا ونسي خلقه، قال : من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة، وهو بكل خلق عليم﴾ (35).

ذكر علماء التفسير : أن سبب نزول هذه الآيات، هو أن أبي بن خلف — لعنه الله — جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظم رميم، وهو يفته ويدروه في الهواء، وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : «نعم يبعث الله ثم يبعثك ثم يحشرك في النار» فنزلت آية «أو لم ير الانسان».

و«ال» في الانسان للجنس تعم كل منكر للبعث، فهو يشمل أبي بن خلف ومن سلك طريقه. هذا الانسان المتمرد الذي آثره الله بالاستخلاف في الأرض، وحمله في البر والبحر، ورزقه من الطيبات، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، هذا الانسان الذي يقول الله عنه في محكم كتابه (36) : ﴿إن الانسان لكفور﴾ ويقول عنه (37) ﴿قتل الانسان ما أكفره﴾ فماذا دهاه وشغله حتى ينزل به المولى — جل جلاله — هذا التقرير والتوبيخ والايلام ؟

إن القرآن العظيم، يتساءل عن هذا الانسان قائلا : ﴿من أي شيء خلقه﴾ ثم يجيب : ﴿من نطفة خلقه، فقدره، ثم السبيل يسره، ثم أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره﴾ (38). اغتر الانسان بعقله، وادعى المغرورون بالعلم، أنه لا حياة أخرى، ولا يمكن أن يؤمنوا إلا بما هو محسوس.

وبالمناسبة يحضرنى ما تناقلته بعض الصحف عن الرائد الملحد الذي يقول : «إنه ذهب إلى القمر فلم ير الله» ويغفل هذا الانسان الملحد أن كثيرا من أمور العلم نفسه تعتبر غيبا، ولا يراها أحد، فنقول لهذا الانسان الكفور وأمثاله : فهل رأى أحد الجاذبية التي تسقط التفاحة، وتجعل صعود الجبل أشق من الهبوط منه ؟ ألم تكن هذه آثارا للجاذبية، وهي غيب لا نعرف كنهها ؟ وهل أحد رأى الإلكترون، والموجة اللاسلكية، والذرة، والنيوترون ؟ ومع ذلك نؤمن بوجودها اكتفاء بآثارها.

إننا لا نخفي إعجابنا بالتقدم العلمي، وبهذا الانجاز والابداع العظيم الذي وصل إلى غزو الفضاء، ولكننا نريد أن يخفف الانسان من طغيانه في المادية، وألا يجعلها المعبود الوحيد، فيغرق في تلك النظرة المادية الالحادية التي شقيت بها البشرية المعاصرة

(35) آية 37، 38، 39. يس

(36) آية 66، الحج

(37) آية 17 — عبس

(38) آية 18 — 19 — عبس

أيما شقاء، وأنكرت وجود الخالق سبحانه وكفرت برسالات السماء، وباليوم الآخر، وما فيه من ثواب وعقاب.

إذن — حسب هذه المزاعم الباطلة — نصير إلى الفناء الذي لا حياة بعده، وإن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر، وما دام الأمر كذلك، فلا حرج على مثل هؤلاء أن يعيشوا في الأرض فسادا، فليس هناك شيء اسمه حلال وآخر اسمه حرام، وما أوجدتنا الطبيعة في هذه الدنيا، إلا للنهوض ونلعب، ونستمع بكل ما فيها من لذائذ وشهوات، من أي طريق، وبأية وسيلة، ونلبي نداء الجنس مسرعين غافلين، أو متغافلين عن قول الحق⁽³⁹⁾ ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾ فالناس يرجعون إلى الله العليّ القدير لا محالة، ليجزي كل واحد على ما قدمت يداه. ويرحم الله القائل :

«فلو كنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي
ولكننا إذا متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شيء»

إن هؤلاء المغرورين يعتبرون الحياة الدنيا أياما تمر وأعواما تكرر، وأجيالا تتعاقب، وأعمارا يطويها كمر الغداة ومر العشي، وإن متاع الحياة هو منتهى ما لهذا الانسان في الوجود، وإن الموت هو النهاية الأبدية، فلا بعث ولا حساب ولا جزاء. وبنوا على هذه الظنون الخاطئة، أن الانسان خلق ليموت، ويعيش ليأكل ويتمتع، لا من حيث إنه انسان، جعله الله خليفة في أرضه وفضله على سائر خلقه.

ولقد ندد القرآن بهؤلاء، وبين حالهم وسوء صنيعهم حينما كانوا يستمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكتاب الله عز وجل ولدعوة القرآن الكريم لهم إلى الايمان برسالة السماء وشريعة خاتم الأنبياء، وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، فيعرضون عن دعوة الحق، ويسرعون بالانصراف من مجلس الايمان، ويفرون من الاستماع لنداء التوحيد، ويهربون من كلمات رب العزة التي منها : ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا، قل، بلى، وربي، لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم، وذلك على الله يسير﴾⁽⁴⁰⁾.

وخلاصة القول، لو تتبع الانسان منهج السماء، وحاول أن يعرف عنصرين :

(39) آية 83 — يس

(40) آية 7 — التغابن.

الأدنى والأسمى، وإنه بعد ذلك لا مفر له من أحد المنزلين : إما الجنة، وإما النار، سعد في حياته الدنيا والآخرة، ولأصبح عبدا حقيقيا لله تعالى، ومن كان عبدا لله حقق الغاية من أجل عبوديته، ومن سلك هذا الطريق، تكفل الله به في دنياه، في حياته، في نومه، في يقظته، وتكفل به بعد مماته.

﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى، وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾⁽⁴¹⁾.